بسم الله الرحمن الرحيم

أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في فرع اللغة العربية وآدابها

(عملية فهم النص على ضوء مدرسة البنيويين سورة الإسراء نموذجاً)

الأستاذ المشرف:

د. رمضان رضائي

الأستاذ المشرف المساعد:

د. جلال مرامي

إعداد:

علي مظفري

٢٠١٥/١٣٩٤

الإهداء

پیشکش به:

کهربای سیمای پدرم و

کافور گیسوان مادرم[1]

[1] . کلمات از حسین منزوی

الشكر والعرفان

أقدّم جزيل الشكر للأستاذ المشرف الدكتور رمضان رضائي والأستاذ المشرف المساعد الدكتور جلال مرامي ولأساتذتي بمرحلة الماجستير في أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية ولأساتذتي الكرام بمرحلة البكالوريوس في جامعة العلامة الطباطبائي ولاسيّما الدكتور حميد رضا ميرحاجي، والدكتور علي گنجيان خناري والدكتور محمد هادي مرادي وكذلك أتقدم بشكري الحار والخالص لأعضاء اللجنة الموّقرة على قبولهم قراءة البحث وتقويمه.

الفهرس

الملخص..... ١

الفصل الأول: أولويات البحث..... ٢

المقدمة..... ٢

بيانٌ للمسألة ٣

أهمية البحث..... ٤

أهداف البحث..... ٤

أسئلة البحث..... ٤

فرضيات البحث..... ٤

خلفيات البحث..... ٥

منهجية البحث..... ٦

الفصل الثاني: إعجاز القرآن..... ٧

المعجزة لغةً واصطلاحاً ٧

وجوه الإعجاز..... ١٣

آراء بعض العلماء حول إعجاز القرآن..... ١٥

الرماني..... ١٦

الخطابي..... ١٧

الباقلاني ١٩

الجرجاني..... ٢١

نظرية النظم..... ٢٣

وحدة النص في القرآن..... ٢٦
الفصل الثالث: المدرسة البنيوية..... ٣٥
نشأة البنيوية..... ٣٥
البنيوية التشيكية..... ٣٦
البنيوية الفرنسية..... ٣٧
تعريف البنيوية..... ٣٨
البنيوية في النقد الأدبي..... ٣٩
البنيوية اللغوية..... ٤١
١. اللغة نسق أو نظام..... ٤٢
٢. ثنائية اللغة والكلام..... ٤٣
٣. ثنائية الدالّ والمدلول..... ٤٦
٤. التزامنيّة والتعاقبيّة..... ٤٨
٥. العلاقات السياقية والعلاقات الإيحائية..... ٤٩
أصول البنيوية..... ٥٠
تزفيتان تودوروف..... ٥٥
نظرية القراءة..... ٥٦
رولان بارت..... ٥٦
شفراتُ رولان بارت (نظام الترميز)..... ٥٨
موت المؤلف..... ٥٩

نقد البنيوية..... ٦٠
الف) إيجابيات..... ٦٠
ب)سلبيات..... ٦١
الانحرافات الفكرية..... ٦٢
الانحرافات الفنية..... ٦٤
الفصل الرابع: تطبيق البنيوية على سورة الإسراء نموذجاً..... ٦٦
الف) مضامين السورة..... ٦٦
ب) بنية السورة ونسيجها..... ٦٩
ت) العناصر الأسلوبية للسورة..... ٧١
١. المفردات..... ٧١
٢. الجملات والتعابير..... ٧١
٣. المعنى الرئيسي..... ٧٣
ث) تلاؤم عناصر السورة وتناسقها..... ٧٤
تطبيق البنيوية على الآية الأولى إلى الآية العشرين..... ٧٧
الآية الأولى..... ٧٧
المستوى النحوي والدلالي..... ٧٧
المستوى اللغوي..... ٧٨

الآية الثانية..... ٨٠
المستوى النحوي والدلالي..... ٨٠
المستوى اللغوي..... ٨١
الآية الثالثة..... ٨١
المستوى النحوي والدلالي..... ٨١
الآية الرابعة..... ٨٢
المستوى النحوي والدلالي..... ٨٢
المستوى اللغوي..... ٨٢
الآية الخامسة..... ٨٢
المستوى النحوي والدلالي..... ٨٣
المستوى اللغوي..... ٨٣
الآية السادسة..... ٨٣
المستوى النحوي والدلالي..... ٨٣
المستوى اللغوي..... ٨٣
الآية السابعة..... ٨٤
المستوى النحوي والدلالي..... ٨٤
المستوى اللغوي..... ٨٤

الآية الثامنة.....٨٤
المستوى النحوي والدلالي.....٨٤
المستوى اللغوي.....٨٥
الآية التاسعة.....٨٥
المستوى النحوي والدلالي.....٨٥
المستوى اللغوي.....٨٥
الآية العاشرة.....٨٥
المستوى النحوي والدلالي.....٨٦
المستوى اللغوي.....٨٦
الآية الحادية عشرة.....٨٦
المستوى النحوي والدلالي.....٨٦
المستوى اللغوي.....٨٧
الآية الثانية عشرة.....٨٧
المستوى النحوي والدلالي.....٨٧
المستوى اللغوي.....٨٨
الآية الثالثة عشرة.....٨٨
المستوى النحوي والدلالي.....٨٨

المستوى اللغوي.....٨٩
الآية الرابعة عشرة.....٨٩
المستوى النحوي والدلالي.....٨٩
المستوى اللغوي.....٩٠
الآية الخامسة عشرة.....٩٠
المستوى النحوي والدلالي.....٩٠
المستوى اللغوي.....٩٠
الآية السادسة عشرة.....٩١
المستوى النحوي والدلالي.....٩١
المستوى اللغوي.....٩٢
الآية السابعة عشرة.....٩٢
المستوى النحوي والدلالي.....٩٣
الآية الثامنة عشرة.....٩٣
المستوى النحوي والدلالي.....٩٣
المستوى اللغوي.....٩٣
الآية التاسعة عشرة.....٩٣
المستوى النحوي والدلالي.....٩٤

الآية العشرون.....٩٤
المستوى النحوي والدلالي.....٩٤
المستوى اللغوي.....٩٤
الفصل الخامس: النتائج وملخص الرسالة بالفارسية.....٩٦
النتائج.....٩٦
ملخص الرسالة بالفارسية.....٩٧
المصادر والمراجع.....١٠٧

الملخص

في مدى الزمن يعدّ العلماء وجوهَ إعجاز المصحف الشريف. من أهم هذه الوجوه: الصرفة، والأخبار الصادقة والمغيبات، والإعجاز العلمي، والنظم. هؤلاء العلماء من مثل الرماني والخطابي والباقلاني تحدثوا كثيراً في هذه الحقول، لكن الذي رسم إطاراً عقلياً دقيقاً لإعجاز القرآن هو الجرجاني. قد اعتقد الجرجاني أنّ الوجه الوحيد لهذا الإعجاز هو النظم أو هَندسة الكلام. والجدير بالإشارة أنّ العلماء من قبل الجرجاني تحدثوا عن نظم القرآن لكن الذي تحدث عن نظرية النظم بشكل أدق هو الجرجاني.بنى الجرجاني الإعجاز بالنظم بعد أن هدم جملة الآراء. هو يعتقد أنّ الإعجاز ليس في الكلم المفردة بل في ضمّ المفردات بعضها ببعض. إذا نعتبر النص كألغاز فالإعجاز ليس في قطعاتها المنفصلة بل الإعجاز في التناسق بين القطعات والتلاؤم بينها. والمدرسة الحديثة التي تؤمن بالنظام (System) هي البنيوية. قد اهتم البنيويون بنسيج النص وتلاؤم عناصر النص. إنهم يحللون النص بواسطة انكشاف علاقات جزء مع جزء آخر. فكما لاحظنا ارتباط وثيق بين هذه المدرسة ونظرية النظم. نحن في هذه الرسالة بعد إيضاح إعجاز القرآن، نتناول أصولَ البنيويين وإيجابياتها وسلبياتها وفي النهاية نحاول أن نطبق البنيوية على سورة الإسراء نموذجاً. والمنهج المعتمد عليه في هذه الرسالة هو المنهج التحليلي - الوصفي وذلك بالاعتماد على المصادر المكتبية. نستنتج في هذه الرسالة أن الإعجاز ليس في أي وجه من الوجوه التي سنذكرها إلا النظم. ونستنتج أيضاً أن البنيوية مع كل نقائصها تقدر على إدراك النص القرآني وتقدر على تصيّد المعاني الكثيرة في القرآن. بما أن هذه المدرسة تؤكد على النظام وبنية النظام وترى النص كنظامٍ ذي علاقات بين أجزاءه وعناصره وهذا هو ميزةُ نص القرآن البارزة.

الكلمات الدليلية: إعجاز القرآن، نظريّة النظم، فهم النص، المدرسة البنيوية، سورة الإسراء

الفصل الأول: أولويات البحث

- المقدمة

إن الهدف من الكتابة هو فهم النص، الكاتب وقلمه وذهنه و ألفاظه ومعانيه كلهافي خدمة فهم النص. حين نقرأ النص نريد أن نجد المفهوم فيه والقراءة بدون الفهم والإدراك أمرٌ عبثٌ لا فائدة فيه. وهناك للغة دورٌ أساسيٌ في الكتابة. بعبارة أخرى الكتابة بدون تعلم اللغة وبدون تعلم قواعدها أمرٌ مستحيلٌ. ظهر بعض المكاتب الأدبية المختلفة في أوروبا وهم لا يهتمون باللغة وبدورها في النص وركزوا على العناصر غير اللغة من مثل الملابسات الخارجية، البيئة، المجتمع، المؤلف و... . هذه المكاتب قد مزجت النقدَ الأدبي بالعلوم المختلفة مثل علم الاجتماع وعلم النفس و... . حتى ظهرت المدرسة الحديثة بعنوان البنيوية (الأدبية) لتركز على اللغة لينفصل الأدب من العلوم المختلفة ومن الملابسات الخارجية.

لما نتحدّث عن البنيوية ونقبلها كمنهج ذي قواعد وأصول نواجه مدرسة خاصة تظهر في فرنسا غالباً بعد حرب العالمية الثانية وتمتد في أمريكا وإنجلترا، هذه المدرسة (بشكل عام) اتجهت إلى لسانيات دوسوسير واستفادت منها في الظواهر الاجتماعية والثقافية. (أحمدي، ١٣٨١: ١٤) فالبنيوية ظهرت في العلوم المختلفة وقد سببت النموَّ في كثير من العلوم خاصةً "الأدب". تدّعي البنيوية أنّ لها مقاماً رفيعاً في المجال الأدبي بما أنّ يستطيع أن يولّد نموذجاً كمرجع للآثار الفردية من خلال نظام الأدب. حاولت البنيوية أن تعرّف أصول البنية لا للأجزاء المفردة والمنفصلة بل للعلاقات بين هذه الأجزاء وصممت أن تمهّد للمجال الأدبي أموراً علمية خاصة بهذه الأصول. (سكولز، ١٣٧٩: ٢٦)

فتواجه هذه المدرسة إلى النص كنظامٍ وتناسقٍ. لا يهتم بالمؤلف وكأن المؤلف ميتٌ ولا يهتم بالملابسات الخارجية بل المهم هو النص وتحليل العلاقات بين أجزاء النص. يبدأ عمل الناقد البنيوي بالنص وينتهي به. فهكذا تقرب آراء البنيويين من نظرية النظم التي طرحها الباحث الكبير عبد القاهر الجرجاني في كتابه *دلائل الإعجاز*. هو أيضاً قد اعتقد أنّ الميزة التي تُميّز بين النص والنص الآخر هو النظم بين الأجزاء والعناصر في النص وتلاؤمها وأثبت أن النظم هو الوجه الوحيد لإعجاز القرآن.

فنظراً إلى كلام الجرجاني هناك الانسجام والوحدة في المصحف الشريف. وقد وقع هذا الكتاب الكريم بنظمه الخاص في أعلى درجات البلاغة والفصاحة. فلذلك تقدر المدرسة البنيوية بأصولها الخاصة على اكتشاف العلاقات بين عناصر النص. وقد يؤدي هذا الكشف إلى تصيّد المعاني في النص القرآني. فبهذا المنطلق قمنا بدراسة أصول البنيوية وتطبيقها على سورة الإسراء. فتمت دراستنا هذه في هذه الرسالة على خمسة فصول: الفصل الأول يحتوي على كليات البحث: بيان للمسألة والأسئلة والفرضيات والأهداف و... . والفصل الثاني يشتمل على إعجاز القرآن ووجوهه وتبيين هذه الوجوه في اعتقاد بعض العلماء، وإيضاح نظرية النظم التي يقيم عليها البحثُ الرئيسي. في الفصل الثالث تحدثنا عن نشأة البنيوية وعن آراء البنيويين وعن أصول البنيوية وعن إيجابيات هذه المدرسة وعن سلبياتها. وفي الفصل الرابع طبّقنا البنيوية على سورة الإسراء نموذجاً أي درسنا كل هذه السورة بشكل عام ومن الآية الأولى إلى الآية العشرين بشكل خاص والباعث على اختيار هذه السورة أولاً تبيين مسألة الإسراء والمعراج وثانياً مسألة العطف الخاصة في هذه السورة وعلاقته بقضية الإعجاز بما أن يجب على الباحث أن يبيّن العلاقات الموجودة بين هذه الآيات، والجدير بالذكر أننا اخترنا المستوى النحوي والدلالي والمستوى اللغوي في تحليل الآيات الكريمة. وأخيراً، الفصل الخامس يحتوي على نتائج البحث والملخص الفارسي.

- بيانٌ للمسألة

تهتم البنيوية بنظام اللغة وبدورها في فهم النص. قد حاولت هذه المدرسة محاولةً وافرةً في إثبات هويةً نظام اللغة ولاسيما في ترسيم إطار اللغة المحدّدة. ويعدّ هذا الأمر معياراً مناسباً في تبيين ميزات النص القرآني بوصفه أعلى نص موجود، وعلى أساس هذه المدرسة نستطيع أن نعرّفَ النظم اللغوي الموجود في القرآن كنظامٍ خاصٍ أعلى. وهذه الدراسة تسعى لتبيين العلاقات بين الجملات والعبارات وتبيين النظم الذي يتشكل بواسطة هذه العلاقات في النص. وأيضاً تتناول هذه الدراسةُ تحليلَ بعض المباحث البلاغية من مثل التقديم والتأخير والفصل والوصل و.... وهذه المباحث مرتبطةٌ بعلم المناسبة مباشرةً. وإن علم المناسبة (علم العلاقات بين الجملات والتلاؤم بينها) من العلوم القرآنية الثمينة وهو يرتبط بقضية الإعجاز من حيث أنه في حقيقته بحث في آليات النص الخاصة التي تميزه عن غيره من النصوص داخل الثقافة. فعلم المناسبة علم "أسلوبي" بمعنى أنه يهتم بأساليب الارتباط بين الآيات

والسور في المصحف الشريف، وأيضاً البنيوية تؤكد على هذا الارتباط والتلاؤم والتناسق، فمن الممكن أن نتصيّد المعاني الكثيرة باستخدام البنيوية في قراءة النص القرآني.

- أهمية البحث

في مدى الزمن تناول العلماء قضية الإعجاز في القرآن كنصٍ أعلى. وبما أنّ هذه الدراسة تسعى لتبيين إعجاز القرآن على أساس المدارس الغربية فإنها ذو أهمية كبيرة. فإننا في الواقع فقد نعثر على أدبية هذا النص وفق القواعد والأصول العصرية في العالم. وقد يعتقد الباحث أن البنيوية مع كل نقائصها تقدر على إدراك النص القرآني وتقدر على تصيّد المعاني الكثيرة في القرآن. والجدير بالإشارة أن البنيوية تستطيع أن تجد جواباً مناسباً للسؤال عن المناسبة بين الآيات وعن النظم الموجود فيها.

- أهداف البحث

تبيين إعجاز القرآن على أساس المدرسة البنيوية

إيضاح نظم النص القرآني كنظمٍ خاصٍ

تبيين علاقة المدرسة البنيوية مع تصيّد المعاني في القرآن

- أسئلة البحث

كيف يعدّ النظم القرآني نظماً خاصاً؟

ما هي العناصر البنيوية في سورة الإسراء؟

- فرضيات البحث

يعد نظم النص القرآني نظماً خاصاً بما أنّ يفسد المعنى المقصود بمجرد التغيير في ترتيب المفردات والعبارات.

نستطيع أن نحصل على النظم في حقل المفردات وعلى المعاني والمفاهيم الجديدة، وعلى الدلائل التي تدل على الانسجام.

- خلفيات البحث

يجب أن أشير إلى أنّ البنيوية في الأدب العربي تُستخدم في الشعر والرواية والقصة القصيرة أكثر منها في المصحف الشريف، وأنّ الدراسات عن تطبيق البنيوية على القرآن الكريم قليلة جداً. منها:

١. *من صور الإعجاز اللغوي في القصص القرآني (دراسة بنيوية في سورة الكهف)*، خليدة بن عياد، الطبعة ٠١، منشورات روائع مجدلاوى، ٢٠١٣

قد حاولنا للحصول على هذا الكتاب، لكن ما كان في متناول يدنا مع الأسف الشديد.

٢. التقنيات البنيوية في سورة القدر، الكاتب: الشمري، ثائر سمير حسن، الدجيلي، حسن عبدالهادي، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد١٨، العدد١، ٢٠١٠

من النقائص التي يمكن أن نذكرها حول هذه الدراسة أنّ في بدايتها نواجه إلى ثلاثة مراحل:

١. بنيوية الحروف
٢. بنيوية التراكيب
٣. بنيوية الدلالة

قد نعتقد أن الباحث أخطأ في هذا التقسيم ومردّ ذلك أن في المرحلة الأولى تّقسّم الحروف قسمين: ١. أصوات الحروف وبنيتها ٢. معاني الحروف. إنّ أصوات الحروف مبحثٌ إيقاعيٌ ويجب أن نجعلها تحت عنوان "البنية الإيقاعية". وأيضاً معاني الحروف مبحثٌ دلاليٌ ويجب أن نجعلها تحت عنوان "البنية الدلالية". لكن في هذه الدراسة جعل الباحث لها باباً منفصلاً. وحول التراكيب يجب أن نقول أنّها تقسم قسمين: الاسمية والفعلية. لكن هذا التقسيم أيضاً يجب أن يُجعل تحت عنوان البنية الدلالية بما أن مباحث الجملات الاسمية والفعلية مرتبطة بالمعنى مباشرةً.

٣. قصة محبة يوسف عليه السلام وزليخا في سورة يوسف دراسة بنيوية توليدية، خير الوحيودي ،الرسالة، المشرف: محمد فيصال فتوي، أندونيسيا، مالانج ، جامعة مولانا مالك إبراهيم،٢٠١٢

أيضاً قد حاولنا للحصول على هذه الرسالة، لكن ما كان في متناول يدنا.

- منهجية البحث

والمنهج المعتمد عليه في هذه الرسالة هو المنهج التحليلي - الوصفي وذلك بالاعتماد على المصادر المكتبية.

الفصل الثاني: إعجاز القرآن

المعجزة لغةً واصطلاحاً

العجز لغة الضعف، وعجز عن الشيء عجزاً، فهو عاجز أي ضعيف(أحمد بن فارس، ١٩٧٩م، ج٤: ٢٣٢)، ومنه ما جاء في القرآن الكريم حكاية عن ابن آدم حين قتل أخاه "قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" (المائده: ٣١)

والمعجزة ما أعجز به الخصم عند التحدي. والهاء للمبالغة. (الفيروز آبادي، ٢٠٠٥م: ٥١٦)

ولا يختلف المعنى الإصطلاحي عن اللغوي، فالمعجزة أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله. وهذا المعنى يوضح في المعجزة ثلاثة أمور: خرق العادة والاقتران بالتحدي والسلامة من المعارضة. فأما خرق العادة فأن يتعارف القوم أمراً، ويعتادوا عليه ويألفوه فتأتي المعجزة خارجة عما تعارفوه واعتادوه وألفوه وهي من جنسه. (الكوّاز، ١٤٢٦م: ١٦-١٧) بعبارة أخرى المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات أمة خاتم النبيين (ص) عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذووالبصائر كما قال النبي(ص): "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"(نقلاً عن البخاري،٢٠٠٢م: ١٢٧٣). قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصى موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض ابن قراض مشاهده والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهد كل من جاء بعد الأول مستمراً. (السيوطي، ١٩٩٢م: ٤٦٤) فتلائم المعجزات مع الأمة معنى أن الله يظهر المعجزات بواسطة الأنبياء على سطح عقول الناس.

كان السحر عادة قوم موسى -عليه السلام- وهم فيه الحذاق المهرة، فجاءهم موسى بسحر فاقهم ولم يفتهم جنسه، قال تعالى:"قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (٦٥) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (٦٧) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (٦٨)وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (٦٩)فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ(٧٠)" {طه: ٦٥-٧٠}. وكان الطب عادة قوم عيسى -عليه السلام- فأعجزهم بما يمهرون، قال تعالى: "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨)وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ(٤٩)" {آل عمران: ٤٨-٤٩}. وكانت الفصاحة والبلاغة عادة قوم محمد (ص) فهم الأساتيذ في بلاغة المنطق وخلابة الألسنة واللدد عند الخصومة، فنقض القرآن الكريم العادة، وخرق المألوف وهو بلسانهم وعلى سنن كلامهم. (المصدر السابق: ١٦)

وقد أودع الله في كتابه الكريم كلّ ما فيه صلاح أمر الآدميين، وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، فالمصحف الشريف كتابٌ لهداية البشر وسعادته في الدنيا والآخرة وهو معجزة النبي (ص) أي أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يؤيد الله بها من يصطفيه من عباده لحمل رسالته إلى البشر لتكون شاهداً على صدقه ولم يزل القرآن حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين.

يجيب النص القرآني عن أسئلة الوجود والأخلاق والمصير. وهو يجيب عن ذلك بشكل جمالي- فني، ولهذا يمكن وصفه بأنه نص لغوي -أعني لا بدّ لفهمه من فهم لغته أولاً. وهذه اللغة ليست مجرد مفردات وتراكيب، وإنما تحمل رؤيا معيَّنة للإنسان والحياة، وللكون- أصْلاً، وغيباً ومآلاً. وقد تجسد هذا الشكل الجمالي في كتابة فاجأت العرب، بحيث أجمعوا على أنها فريدة، لم يروا مثلها، وعلى أنها لا تضاهى. وهكذا لم يعرفوا كيف يحددونها، استناداً إلى المعايير التي يعرفونها، فقالوا: إنها نثر لكنها ليست كمثل النثر، وإنها شعر لكنها ليست كمثل الشعر. وهي إذن كتابة أكثر من أن تنحصر في الشعر أو النثر. وقالوا إنها كتابة لا توصف، وسرٌّ لا يمكن سبره. واتفقوا على أنها نقض لعادة الكتابة شعراً، وسجعاً، خطابةً ورسالةً، وأنها نوع من النظم في تركيب جديد. (أدونيس، ١٩٩٣م: ٢٠-٢١)

وهنا معنى زائد وهو أن حجة الإعجاز تثبت إذا كانت المعجزة مدركة، معلومة في مستوى إدراك الخصم مع كونها فوق طاقة الجميع، وإن أثرها يمتد على الزمن بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة الناس إليه، وهذا المعنى يوجب بيان العلاقة بين الأمة ومعجزتها من جهتين: طبيعة الأمة وزمن المعجزة. ومن حيث الطبيعة كانت المعجزات السالفة حسية، تلائم طبيعة الأمم التي أنزلت فيها، أما معجزة

العرب فكانت عقلية لفرط ذكائهم وتوقد أذهانهم. ومن حيث الزمن خصت هذه المعجزة بالعقلية ليراها ذوو البصائر إلى يوم القيامة، أما المعجزات الماضية فكانت تشاهد بالأبصار فهي تنقرض بانقراض المشاهد، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً. فكان إن اختلف القرآن الكريم عن معجزات الأمم السالفة بخلوده إلى قيام الساعة وترتب على هذا إن كانت إعجازه مما يلائم الخلود والبقاء. وأما الاقتران بالتحدي فأن يقدم النبي الآية على نبوته، وينازل بها من يشاء المنازلة، فإذا ظهرت آية النبي وعجزوا عن الإتيان بها صح له ما ادعى وثبتت النبوة. ولا يقصد بالتحدي أن ينازل الناس جميعهم النبي صاحب الدعوة، لأن من كان منهم، من أهل الصنعة، يعرف عجزه، ويعرف أيضاً أهل العصر، ممن هو في طبقته، أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً. وجاءت آيات التحدي معبرة عن قدرة الله سبحانه، موحية بأن مآل المعاندين إلى خسران. قال تعالى:"أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣)فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤)" {الطور:٣٣-٣٤}. وقال تعالى: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)"{الإسراء: ٨٨}. وقال تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)**{**هود: ١٣}. وقال تعالى: **"**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤)**{**البقرة: ٢٣-٢٤}. وبهذا تم التحدي.(الكوّاز، ١٤٢٦م: ١٧)

وقد سارت حكمة الله سبحانه في تحدي المعاندين على مراتب، من حديث مثله ومثل هذا القرآن فعشر سور مثله فسورة واحدة من مثله، وهذه هي النهاية في التحدي وإزالة العذر. وفي قوله تعالى:"فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن"{البقرة: ٢٤} دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدي به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا، وهو غيب لا يعلمه إلا الله. وأما السلامة من المعارضة فأن تسلم المعجزة مما يقاربها فيتدنى من منزلتها فيجوز الإعجاز، وقد حفظه الله تعالى المعجزة القرآنية مما يشوبها، وسجل التأريخ أسماء قوم زعموا أنهم عارضوا القران، فمنهم من ادعى النبوة وجعل ما يلقيه من ذلك قرآناً كي لا تكون دعوته بلا دليل. ومنهم من اتخذ معارضة القرآن صناعة وظن أنه قادر عليها يضع لسانه منها حيث يشاء. (المصدر نفسه: ١٨)

باين القرآن الكريم معجزات القرون الماضية، كما باين أهله أهل تلك القرون، وخالفت طبيعته، من حيث كونه كتاباً يدرك مغزاة بالعقل، طبيعة المعجزات السالفة الحسية، وهذا راجع إلى سنة الحياة في التطور والتحضر. وقد أخبرنا تعالى أن بعض الناس أيام النزول لم يدركوا ذلك، فأرادوا أن يجري القرآن على سنن ما سلف من المعجزات، إلا أن الله سبحانه شاء أن تكون المعجزة المرسلة إلى العرب كتاباً فتوافق

ما هم عليه من نضج الفكر، وحسن التدبير، قال تعالى: " وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١){العنكبوت: ٥٠-٥١}. فنص سبحانه على أن الكتاب آية من آياته، ودليل على النبوة وهو يقوم مقام ما سبق من المعجزات. (المصدر السابق: ١٩)

يقول السكاكي: "إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، وكما يدرك طيب الغنم العارض لهذا الصوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان". (نقلاً عن الكواز، ١٤٢٦م: ٢٤) ومن هنا توجب على كل طالب للإعجاز أن يلتمسه بنفسه، لا أن يقلد فيه غيره، أو يحيل فيه، على معرفة العرب المعاصرين للنزول. (الكوّاز، ١٤٢٦م: ٢٥٤) والجدير بالذكر أنّ لا تشكّل مسألة الإعجاز القرآنيّ علماً قائماً بذاته ولكنّها عبارة عن تدخّل عدّة علوم في محاولتها لفهم التحدّي الذي طرحه القرآن. (زيتون، ٢٠٠٩م: ٣٣)

يقول الجرجاني: خبّرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا (ص) بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر، أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لائحاً معرضاً لكل من أراد العلم به، وطلب الوصول إليه، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها، والعلم بها ممكناً لمن التمسه؟ فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزاً قائم فيه أبداً، وأن الطريق إلى العلم به موجود، والوصول إليه ممكن، فانظر أي رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى وآثرت فيه الجهل على العلم، وعدم الاستبانة على وجودها. (الجرجاني، ١٩٩٢م: ١٠)

تحدى القرآن الناس في آخر ما تحداهم به، أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سوره، فأدرك العرب أنه من الواجب أن يكون التحدي واقعاً في القرآن على الطريقة المعتادة في الفصحاء، لأنهم قد كانوا يتبارون، ويتحدى بعضهم بعضاً في الكلام الفصيح، من منظوم ومنثور، ورأوا في القرآن حدثاً أدبياً وظاهرة فنية لم تكن كسواها من الظواهر التي سبقتها أو تلتها. فهي تطرح نفسها على أنها ليست ثمرة تطور فنّيّ تأريخي يمارسه البشر، ولكنها كلام الله. وهي ليست كغيرها ممارسة للإبداع، واكتفاء بتحدي الآخرين من باب المفاخرة التي يكتنفها شعور بأن للآخرين قدراتهم الفنية أيضاً، ولكنها ظاهرة ترى تفوقها معجزاً. (زيتون، ٢٠٠٩م: ٨)

ويذهب الدكتور طه حسين إلى أن القرآن فريد في بابه، ولم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله، وتحدى الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن لن يجدوا سبيلاً إلى ذلك. فمن المسلم به أن القرآن قد حاول بعض العرب أن يأتوا بمثله، ومن ذلك ما جاء على لسان مسيلمة الكذاب "والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس". (نقلاً عن عامر، ١٩٨٨م: ٢٣)

وهذا الوليد بن المغيرة، وهو من رؤساء قريش ومن بلغائهم قد أفزعه وفود العرب الى مكة، وقد سمعوا بأمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما سيوا جهونهم، فأشار على قومه، أن يجمعوا العرب فاجتمع حوله نفر من قريش، وكل منهم مسحور بهذا القرآن متحير في أمره، لا يدري ماذا يقول؟ فأرادوا أن يوكلوا الامر الى الوليد بن المغيرة باعتبار منزلته، وسنه، يقول رأيه في محمد والقرآن المنزل عليه، ولكنه رفض، وقال: بل أنتم فقولوا نسمع، قالوا :نقول:كاهن، قال: والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزة الكاهن، قالوا : فنقول: انه مجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه وسوسته، قالوا فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم، ولا عقدهم. (الجرجاني، ١٩٩٢م: ٥٨١) قالوا:إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليها لطُلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر. (الجرجاني، ١٩٩٢م: ٣٨٨) وقد خضعت العربُ للمصحف الشريف ولبلاغته ولفصاحته ويجب أن ننتبه إلى هذا الخضوع نظراً إلى أنّ هذه الأعراب كانوا حاذقين في إنشاد الشعر والكتابة والخطابة.

وانظر كيف أن القرآن أعجز أساطين البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف والكلمات التي ينظمون منها كلامهم؟ وكيف أنه بنظمه الفريد قد أثر فيهم تاثيراً بليغاً، فطار بألبابهم واستولى على أحاسيسهم و مشاعرهم، وأدهش عقولهم، وأوقعهم في حيرة، ووقفوا أمامه مذهولين فمنهم من خضع لسلطانه وأذعن لبلاغته وبيانه، فدان له وآمن به عن إدراك وعقيدة بعد أن تذوق حلاوته، ولمس إعجازه بفطرته العربية السليمة، وملكته النافذة الحكيمة ومنهم من ضاق به ذرعاً فكابر وعاند، وأضله الله على علم فأنكر الشمس فى وضح النهار، وجحد التنزيل بعد اليقين والاستيقان.(شيخون، ١٩٧٨م: ٥)

صار القرآن بالنسبة إلى المسلمين: عرب وغير عرب، كتاباً مقدّساً وظاهرة فنية خارقة تمثل بداية لا ماضي لها. جاءت فتراجع الشعر إلى المقام الثاني وتخلّى عن عرشه الذي احتلّه طيلة الحقبة الجاهلية. ولم يجد المسلمون أنفسهم بحاجة إلى الكشف عن سر الإعجاز في القرنين الهجريين الأوَّلَيَن، لأن هذين القرنين يمثلان مرحلة الدهشة بالإسلام التي لا تسمح بالمناقشة، ولأن الثقافات الوافدة لم تكن قد تمكّنت من أخذ دورها في الحياة الفكرية الإسلامية. وإذا ما أطلّ القرن الثالث للهجرة، وجد المسلمون أنفسهم بحاجة للدفاع عن الإسلام في وجه التيارات المناوئة التي استطاعت أن تجد لنفسها مكاناً تحت شمس الدولة الإسلامية. فحمل المفكرون المسلمون همّ الكشف عن أسرار البلاغة القرآنية، ودلائل الإعجاز فيه. (زيتون، ٢٠٠٩م: ٩)